على طريق الأصالة

(٢٠)

سقوط النظرية المادية

أنور الجندى

سقوط النظرية المادية

يمكن القول فى يقين بأن الفلسفة المادية هى أم النظريات المادية العالمية اليوم التى تحرك الفكر والحضارة والمجتمع العالمى سواء ما يتعلق منها بالأدب أم الاجتماع أو النفس والاقتصاد أم التربية والأخلاق .

فنظريات دارون أساساً هى منطلق هذه الفلسفة ، من خلالها ظهرت نظريات فرويد فى علم النفس وماركس فى الاقتصاد ودوركايم فى الاجتماع ومنها خرجت نظريات المنفعة (البرجماتزم) والنسبية والتطور المطلق ، خاصه تطور الأخلاق .

وما من ظاهرة تتحرك فى مجالها الفكر العالمى المعاصر (سواء الفكر الغربى الليبرالى أم الفكر الماركسى والإشتراكى)إلاومنطلقة من الفلسفة المادية، التى لاتقف عند مواجهة الحاضر والمعاصر بل تنطلق أيضاً من مفهوم التفسير المادى للتاريخ .

ولقد كان لهذه الظاهرة الخطيرة بسيطرتها على الفكر الغربى (الذى عمل من خلال السيطرة الاستعمارية والسياسية والاقتصادية على العالم كله) أثرها الواضح فى التحول الخطير الذى وصلت إليه فى

موقفها الخطير من تجاهل عالم الغيب فى إصرار شديد يمتد إلى أخطر ما يتصوره المؤمن وهو إنكار وجود الله تبارك وتعالى وتجاهل قدرته وسيطرته المطلقة على الكون والوجود والحياة والإنسان جميعاً .

ولقد كان التحول الخطير (أكبر انحراف وقع فيه التقدم العلمى الذى سار عليه الغرب منذ استيقظ من سباته العميق وتحرر من هيمنة الكنيسة ومحاكم التفتيش فى أوروبا فى القرون الوسطى) حيث تجاهل تماما الموجد الأول والمحرك الأول والصانع الأول ، فى تحول خطير قادته جماعة الفلاسفة دعاة التنوير الذين استغلوا بعض حقائق العلم التجريبى فى هذا التحول من أجل إقامة العلم مقام الدين ، ومحاولة إتخاذه منطلقاً لبناء حضارة مادية وثنية تقوم على الفردية والاستعلاء والغلو والسرف فى الاستهلاك بتجاهل المصدر الأول لها وهو الله تبارك وتعالى وتفصل بين القيم التى رسمها الدين الحق فتفصل بين القانون والأخلاق ، وبين الدين والسياسة ، وبين الروح والمادة ، وبين المنهج والتطبيق مع المغالاة فى إعلاء المحسوس والعقل والمادة وحيث وصلت إلى هذا التحول الخطير فى الفصل بين المحسوس والغيب وحجب الغيب فى مختلف صوره

وبذلك فقد الفكر الغربى شطر النظرة الجامعة الإنسانية (التى تقيمها الدين الحق أساساً لحركة الحياة) وفقد معها كل ما يتعلق بالألوهية والوحى والنبوة والغيب والمعنويات والأخلاق والقيم

والعقيدة . ومن ثم طارت الفلسفة المادية بجناح واحد وعاشت برئة واحدة وتحركت بنظرة قاصرة تعلى من شأنها جانب المادة الذى هو شطر الوجود الكونى والوجود الإنسانى مع تجاهل جانب عالم الميتافيزيقا (ما وراء المادة) بكل ما يمثله من روح ومعنويات وقيم .

ومن هنا استطاعت الفلسفة المادية أن تحطم النظرة الإنسانية الجامعة التى تمثل الإنسان نفسه (الذى يجمع بين قبضة الطين ونفخة الروح) مما كان له أبعد الأثر فى ردود الفعل الضخمة المتمثلة فى الأزمات والصراعات والارتطامات التى ما تزال تواجهها الحضارة الغربية والتى تتمثل فى تلك الأيدلوجيات والمناهج والنظم التى ما تلبث بعد أن تظهر أن تتصدع وأن يحتاج إلى الإضافة والحذف لعجزها عن العطاء الحقيقى للنفس الإنسانية ولتصورها وانحباسها فى دائرة الفكر المادى وحده .

* * *

والحقيقة الواضحة الثابتة التى لا تحتاج إلى برهان هى أن مختلف النظريات التى أولدتها الفلسفة المادية اليوم والموجودة على ساحة الفكر العالمى (فى مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية) أم فى مجال العلمانية ، أو البرجماتية أو الماركسية والتى نقلت إلى العالم الإسلامى . هذه النظريات كلها تقوم على الأساس المادى الذى

يرفض رفضاً قاطعاً ما وراء الطبيعة وحصر الموجود فى المحسوس ، وحصر وسيلة المعرفة فى الحواس وأبعاد الدين عن توجيه الإنسان أفراداً وجماعات ، وإحلال العلم محله لأداء هذه المهمة وهى بهذا التصور تخالف مفهوم الإسلام والفطرة والعلم مخالفة كاملة وتتعارض مع الحقائق التى تكشف والتى تقرر أن الموجود لا يمكن أن ينحصر فى المحسوس وأن وسيلة المعرفة لا يمكن أن تنحصر فى الحواس وأن الدين الحق ضرورة من ضرورات الإنسان .

والاسلام يقرر فى نصوصه وروحه ضرورة الإيمان بالغيب ويعترف بوسائل مختلفة للمعرفة يعطى كل منها اليقين فى الحدود التى يصلح لها وهى الحواس والعقل والوحى (راجع الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه للدكتور محمود عثمان) .

* * *

ويجب أن يكون واضحاً أن هناك فارقا واسعاً وعميقاً بين العلم التجريبى والفلسفة ومنطلق النظرية المادية فلسفى أساساً وليس علمياً أما رجال العلم التجريبى فإن موقفهم من الخالق ومن الكون ومن الحياة ومن الإنسان تختلف اختلافاً واسعاً وقد تحول كثيراً فى العقود الأخيرة ، فهم يقولون إن المادة ليست شيئاً بارداً وجامداً لا حياة فيه بل هى بالعكس حياة وحياة كثيفة فالكهرب ليس مادة

بل إنه يعمل عمله وهو محرك بروح هائل لتصحيح القصور الحرارى وعندهم أن النفس لا يمكن أن تكون مختلفة اختلافاً شاملا عن المادة وأن الفيزياء النووية وعلم نفس اللاشعور سيتقاربان فالنفس والمادة موجودان فى نفس العالم وكل منهما رهين الآخرى .

كما أثبت العلم التجريبى أن المادة المحسوسة ليست إلا طاقة شكلت وفقاً لقوانين معينة ، وأن هناك قوة تقف خلف هـذه الطاقة وهى التى وضعت تلك القوانين ، وقال انشتين : إن العقل البشرى حين يتأمل هذا الخفاء الكونى يدرك أن وراءه حكمة هى أحكم ما تكون الحكمة وجمال هو أجمل ما يكون الجمال هو الله تبارك وتعالى .

ويقول الدكتور كوريس موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك) إن المعارف الحديثة التى كشف عنها العلم تجعلنا نوقن بوجود مدبر حى وراء ظواهر الطبيعة ، وبذلك جاء تفجير الذرة محطماً لكل الفلسفات المادية حيث أصبحت تخالف حقائق العلم التجريبى الذى أخذ يؤمن بعالم الغيب ووجود الخالق القادر القائم وراء هذا الكون يدبره ويدبره وأصبح الفلاسفة الماديون يعرفون هذه الحقيقة ولكنهم يتغاضون عنها .

• • •

تقوم النظرية المادية على عدة أسس :

أولا : الإيمان بالمحسوس والكفر بما وراء المحسوس مما يترتب عليه إنكار حقائق الوجود الكبرى وأولها وجود الله تبارك وتعالى .

ثانياً : حصر المعرفة فى الحواس بحجة أن العقل الإنسانى لا يستطيع أن يعطى حكما بالنفى أو الإثبات فى هذا الشأن لأنه غير خاضع للتجربة والملاحظة وإنكار الأسباب الغائية .

ثالثاً : اعتبار أن الكون محكوم بقوانين عامة وحتمية تشمل الكون كله فى أرضه وسمائه لا يشذ عنها شىء من إجراء الكون .

رابعاً : إن كل شىء يتطور وليس هناك شىء ثابت على الإطلاق وأن هذا التغيير يخضع لقوانين لا يمكن تغييرها .

خامساً : إن الإنسان ليس مخلوقاً مستقلا وإنما هو فرع من عالم الحيوان .

ولا ريب أن هذه الأصول العامة للنظرية المادية مخالفة تماماً لمفهوم العلم الصحيح ومفهوم الفطرة ومفهوم الدين المنزل بالحق .

وآية الاختلاف بين المفهوم الإسلامى للكون والطبيعة والإنسان ينطلق من حقيقة أساسية هى أن الوجود مادة وروح وأن الكون

لله صانع مدبر يملك مقاليده ويديره لحظة بعد لحظة وأن الله تبارك وتعالى هو الذى وضع نواميس الكون وقوانين حركته ولكنه هو القادر على إيقاف هذه القوانين وخرقها .

وأن أبرز قوانين هذا الكون ونواميسه هى قانون الثوابت والمتغيرات ، وليس هناك تطور مطلق ولا ثبات مطلق وأن الإنسان خلق مستقل منفصل ومختلف عن خلق الانواع كلها وأن هذه الحقائق التى سجلها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً قد أكدها العلم التجريبى فيما كشفه من ظواهر وفى مقدمتها استقلالية الإنسان وكونه نوعاً مستقلا ، أثبتت ذلك الحفريات الكثيرة التى ظهرت فى السنوات الاخيرة .

وقد كشفت أبحاث العلماء فى مجال علم النفس فساد نظرية فرويد وكشف علماء البيولوجيا فساد نظرية دارون ، وكشف علماء العلوم الاجتماعية فساد نظرية دوركايم ، وكشف علماء الاقتصاد فساد نظرية ماركس ، وتبين أن مسألة الحتمية قضية باطلة مدحوضة وأن ظهور الفلسفة المادية لم يكن فى الحقيقة إلا ابتعاثاً للنظرية الإغريقية القديمة ، جرى ذلك على أيدى التلموديين خلال عصر التنوير الأوروبى الذى يعنى إنكار الغيب .

وقد كانت نظرية الشك الفلسفى منطلقاً لطرح كل هذه السموم التى حاولت أن تقضى على كل ما يتصل بالروح أو المعنويات والتى

يقوم تركيب الإنسان من روح ومادة على أساسها .

لقد وسعت النظرية المادية دائرة نفوذها حين أحلت مصطلح الطبيعة بديلا من الله تبارك وتعالى الخالق ، وأحلت الصراع فى الطبيعة والمجتمع بديلا من التقاء العناصر ، وفرضت مفهوم إهلاك الضعاف بدلا من علاجهم وفرضت مفهوم الاستهلاك قاعدة للحضارة لاستنزاف الثروات البشرية وأعلت شأن الشهوات والجنس والسعى وراء اللذات المادية لخدمة امبراطورية الربا .

ولم تقف فى اندفاعها المادى عند حد ما أنكرت وجود جانب آخر من الحياة هو الجانب الروحى بل حاولت أن تصور هذه الموجودات غير المحسوسة التى تطلق عليها صفة الروحية على أنها تركيبات مادية خالصة .

ومن هنا قام العقل المادى وهو لا يرى الحياة إلا معركة على القوت والطعام وهو فى نظرته يستمد مفاهيمه من دعائم الإلحاد والإباحية والتحرر من جميع القيود (مخالفاً فى ذلك العقل المسلم الذى يقوم على الجمع بين الروح والمادة والذى يقرر مفاهيم الإيجابية والشمول والثبات والتوازن، بعيداً عن الإفراط والتفريط ، مصطبغاً بصبغة الله وتبليغ الإيمان ونصرة الخير .

وبذلك عجز العقل الغربى المادى عن إدراك حقائق الكون والحياة

فالمادية تحجب العطاء الروحى والمعنوى الذى له أبعد الأثر فى تفسير التاريخ (والتعرف إلى الانتصارات الضخمة والآثار البعيدة التى حدثت من أجل فكرة وعقيدة وإيمان) .

لقد أقام الإسلام مفهوم التوازن وأهمها توازن النفس الإنسانية بين الرغبات والضوابط ، وعارض مفهوم إطلاق الغرائز والرغبات بدون قيد وكشف عن أن ذلك من شأنه تدمير وجود الإنسان نفسه ووجود المجتمع ذاته كما قرر الإسلام أن المعرفة تصل إلى الإنسان عن وسائط كثيرة منها الحواس ، رفض الإسلام القول بأن كل شىء يتطور وليس هناك شىء ثابت على الإطلاق ، ووضع نظام الثوابت والشعارات ، ولا ريب أن إنكار ما وراء الطبيعة وقصر المعرفة على الحواس وحدها من شأنه أن يؤدى إلى إنكار الدين جملة .

والعلم التجريبى نفسه كشف عن زيف كثيرمن الدعاوى التى ادعاها الفلاسفة والماديون ومنها نظرية هيكل الذى ادعى أنه يستطيع أن يخلق إنساناً إذا أعطى الهواء والمواد الكيماوية والوقت اللازم ، كما سقطت نظرية إمكان نشوء الحياة عن طريق التولد الذاتى ، بل إن نظرية التطور هى فى تقدير علماء التجريب لا تعدو أن تكون فرضاً لم تثبت صحته كما فشلت ديانة الانسانية وسقطت فكرة الدين الطبيعى وفشلت محاولات تكوين علم أخلاق وضعى .

إن هذا التحول فى الغرب بعد أن تبين فساد النظرية المادية يبدو

واضحاً تماماً ، وقد استطاع بعض علماء الغرب أن يؤكد هذه الحقيقة

وقال بعضهم : إن هذا العلم الذى اتخذه الفكر الغربى ديناً وفرضه علينا برغم أنوفنا وجعله مفتاحاً لجميع مشاكل الإنسانية هو اليوم فى حالة عطب وعجز وأن هذا العلم لم يكن فى حقيقته إلا فروضاً وهو متفرع من خيارات سياسية مرتبطة بالمجتمعات الغربية ، وقد تأكد أن مشكلة القيم والثقافة هى المشكلة فى النموذج الغربى وأنه لا يوجد (نموذج فريد) صالح لكل زمان ومكان ولكل المجتمعات .

ومن هنا فإن علينا نحن المسلمين أن نقيم نظامنا على أساس المكونات الجوهرية لشخصيتنا ولإمكانياتنا وأحاسيسنا وأن نرفض مجتمع الاستهلاك الغربى المسعور ، وأن نقيم بديلا من القناعة والتضامن .

. . .

لقد قاد مسيرة الفلسفة المادية فى الغرب مفكرون عمالقة ذوى أسماء لامعة ، قادوا الإنسان باسم (الوعى النفسى) إلى أن يتمرد ، فلم يجدوا لهذا المسلسل نهاية أو توقف ، فهذا الإنسان الذى تمرد على خالقه انتهى فى النهاية ليتمرد على مجتمعه وعلى مثله وعلى أسرته ثم تمرد على ذاته ـ على حد تعبير الدكتور رشدى فكار ـ ولقد عانى كل هؤلاء الفلاسفة الذين استظلوا بظل الفلسفة المادية (اللائية) عانوا الانكسار والتفجر ، ومنهم من أعلن فى لحظاته الأخيرة هزيمته ،

ومنهم من أبى عناده أن يعترف بالاندحار ، لقد أعلن البعض وهم قلة في اللحظات الأخيرة لحياتهم الهزيمة النكراء لهذا العقل الذى منّ الله (تبارك وتعالى) به عليه وتكرم بالعلم ، فالعلم تكرم من الخالق على عبده ، لأننا جميعاً نرتل بخشوع الآية الأولى من القرآن سنرى فيها معيارية المعرفة وبشكل صريح وواضح للإنسان (اقرأ باسم ربك الذى خلق) هناك عالم الغيب وعالم الشهادة ، قراءة عالم الغيب لن تكون إلا باسم الله وبإذنه وبناء على اصطفاء واختيار لرسله وفى حدود ما أذن به (اقرأ باسم ربك الذى خلق) هذا فيما يعنى عالم الغيب عالم الشهادة يتعلم الإنسان (اقرأ وربك الأكرم) شريطة ألا يطغى لأنه بعد أن تكرم عليه خالقه بالعلم قد يداخله الغرور ، وبدلا من أن يجعل علمه في خدمة الإنسان يجعله فى خدمة تدمير الإنسان ، لحذره الخالق سبحانه (كلا إن الإنسان ليطغى) .

لقد لاحظت لدى هؤلاء الملحدين فى غالبيتهم الانكسار والتقوا فى صيحة ندم مضمر أو مقنع أو معلن انطلاقاً من سان سيمون ومروراً بكونت وسبنسر حتى فرويد وسارتر وما حولهما ، والقائمة طويلة . لقد أعلن سارتر فى لحظاته الأخيرة وهو يحتضر :

(لقد قادته فلسفته إلى هزيمة نكراء)

• • •

إن النظريات التي يقدمها الفكر الغربي في ميادين العلوم الاجتماعية والإنسانية والنفس والأخلاق كلها مستمدة من النظرية المادية القائمة على إنكار عالم الغيب إنكاراً تاماً وما يدرس منها في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا ينقل وينشر هذه المعرفة المحرفة .

أما العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها فإنها تقوم في أساسها على تجاهل المصدر الأول وهو الله تبارك وتعالى ، وتنساق في تصور الطبيعة والكون والوجود من خلال مفهوم جزئي ناقص مضطرب ، وبذلك فنحن نجد منطلقنا العلمي والفلسفي جميعاً لا يحقق الوصول إلى التصور الإسلامي الصحيح الذي ينطلق من عقيدتنا وإيماننا .

وأبرز عناصر التناقض يجرى حول عملية (خلق الإنسان) مما يحدث الحيرة والقلق النفسي التي يمر بها الطالب .

والواقع أن ما تورده نظرية التطور عن خلق الإنسان ليس إلا مجرد فروض نظرية لم تجد حتى الآن ، وبعد مائة سنة من الواقع العملي ما يصدقها . ومن يطالع دراسات العلوم الطبيعية المعاصرة يحس تماماً بأمرين :

(١) بأن هذا الكون يتحرك بقدرته الذاتية فهناك تنكر شديد للخالق المالك المسيطر ، حيث لا يبدو ذلك على أى صورة في أى من الصور .

(٢) بأن العلوم الطبيعية المعاصرة تخلو من القيم أو أنها تقف موقفاً محايداً إزاء تلك القيم بما يوحى أن تلك العلوم لاصلة لها بالعقيدة بأى حال من الأحوال .

وإن من يطالع مناهج العلوم الطبيعية المقررة لايحس ولايدرك المعنى الحقيقى الذى يجب أن تنطلق منه هذه العلوم ولا المبدأ الأساسى لها وهو أن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق ظواهر الكون كله وهو مصدر الحركة لكل هذه المواد ، وأنه تبارك وتعالى هو الذى خلق المادة وأعطى للمادة خواصها ولا يستطيع الإنسان أن يخلق المادة ولكن يستطيع أن يستخدمها فقط وقد صنع الإنسان منها الأشياء ، كما أنه هو خالق الحرارة والرياح والأمطار والسحب وأن الله تبارك وتعالى وهو الذى يسير العالم وهذه الرياح والأمطار والسحب تغير الطقس بأمره تعالى .

كذلك فإن قضية (الطاقة) أيضاً يجب ردها إلى الله تبارك وتعالى فهو وحده الذى منح الطاقة هذه القدرة والخاصية وهو الذى وهب الإنسان القدرات الجسدية والعقلية ليكتشف هذه الطاقة ويستغلها لما فيه صالحه ونفعه .

ويجب أن يكون منهج العلوم والكيمياء وفروع العلم الأخرى منطلقة من مفهوم إسلامى واضح هو أن كل المصادر المتاحة لنا فى

هذا الكون قد سخرها الله تبارك وتعالى لما فيه خير البشر ، كما أن الإنسان يسيطر على هذه المصادر والطاقات بمشيئة الله تعالى وبما وهب الله للإنسان من قدرات عقلية وجسدية . هذه القدرات التى تتمثل فى منحه القدرة على الكلام (علمه البيان) وتلك خاصية يتفرد بها الإنسان وتميزه عن المخلوقات فى عالم الحيوان ويتمتع الإنسان إلى جانب ذلك بالحكمة البصيرة والقدرة على الفهم وغير ذلك من القدرات العقلية ، تلك القدرات التى يستحيل على الإنسان أن يتعقل أمور حياته بدونها والقدرة على التعبير تعد إحدى منح الله التى منّ بها على الإنسان كذلك فإنه يجب أن يكون واضحاً أن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان خلقاً مستقلا وإن وجود الإنسان لم يكن نتيجة للتطور والإرتقاء وأن الإنسان كائن متميز من الناحية البيولوجية بشكل يختلف عن بقية المخلوقات وبالجملة فإنه يجب التركيز على أن الله تبارك وتعالى هو وحده الذى أنعم على عباده بأن أمرهم بهذه الإمكانيات المادية ومصادرها (ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش) (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض) .

هذا وبالله التوفيق .

رقم الايداع ٣٣٨٠ / ١٩٨٩
مطبعة دار البيان - بعابدين